مجلة المعيار ISSN: 2588-2384
مجلد: 22 عدد: 44 السنة: 2018

مدرسة الاستشراق الإسبانيّة وموقفها من القرآن والسنة

فارس بن سلين
طالب دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة– الجزائر
fihrbensiline@gmail.com

تاريخ الوصول:2018/01/27 / القبول:2018/03/26/ النشر على الخط: 2018/06/15
Received:27/01/2018/ Accepted: 26/03/2018 / Published online: 15/06/2018

الملخّص:
تهدف الدّراسة للتعريف بمدرسة الاستشراق الإسبانية، وبيان أوّليّتها ودورها الرّيادي في دراسة التراث الإسلاميّ، إذا ما قورنت بمثيلاتها من مدارس الاستشراق الأوروبيّة، ومن هنا ستركّز الدّراسة على إعطاء مفهوم واضح لهذه المدرسة، مع بيان إطارها الزّماني والمكاني، وتسليط الضوء على أهم المراحل التاريخيّة التي رافقت ظهورها وتطورها.
وتسعى الدّراسة أيضا لبيان موقف هذه المدرسة من أصلي الاستدلال في الإسلام (الكتاب والسّنة)، وذلك اعتبارا بالمواقف المجحفة التي عرف بها الاستشراق الأوروبي من التراث الإسلاميّ عموما، ومن أصول الاستدلال فيه خصوصا.
الكلمات المفتاحية: الاستشراق ؛ الإسباني ؛ القرآن ؛ السنة

Spanish Orientalism and its position on the Quran and Sunnah

Abstract
This study aims to recognize the school of Spanish Orientalism. And to show his class and at the same time their superior role (primordial) in the .study of Islamic heritage compared to other schools orientalisms European In addition, this study aims to show the position and the role of this school concerning the origin and the arguments (justifications) in Islam and are "the Quran and the sunna" compared to the other schools which had clearer visions on Islam and its heritage
Key words : the school of Spanish Orientalism-the Quran-the sunna.

Resumé
Cette étude a pour but de reconnaitre l' école d'orientalisme espagnole. Et de montrer sa classe et au même temps leur rôle supérieure (primordiale) dans l'étude du patrimoine islamique par rapport aux autres écoles orientalismes européens. En plus, cette étude a pour objectif de montrer la position et la rôle de cette école concernant l'origine et les arguments (justifications) en Islam et

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

sont "le Quran et la sunna" par rapport aux autres écoles qui avaient des visions moin claires sur l'islam et son patrimoine.

مقدّمة:

للاستشراق دور هام وخطير في حياة هذه الأمّة، وذلك إما طعنا وتشويها في دينها الحنيف، أو إنصافا له وخدمة لتراث المسلمين، وأصبحت هذه الثنائيّة من أبرز الخصائص اللصيقة به، ومن هنا تتأكّد ضرورة استجلاء جهود أولئك المستشرقين، وأحسن من ذلك دراسة تلك الجهود ضمن الإطار المرجعيّ التي ظهرت من خلاله، وهذا الإطار المرجعيّ كثيرا ما يتراءى من خلال استكشاف المدارس الاستشراقيّة ، ومعرفة اختلاف البيئات التي ظهرت فيه، والأيديولوجيّات المتحكّمة فيها. ومن خلال هذا البحث فإنّي سأسعى بعون من الله للتعريف بأحد أهمّ مدارس الاستشراق الأوروبيّة، وأعرقها تاريخا، ألا وهي مدرسة الاستشراق الإسبانيّة، مع بيان موقفها من التراث عموما، ومن أصول الاستدلال –الكتاب والسّنة– في الإسلام خصوصا.

❖ **تعريف الاستشراق الإسباني.**

الاستشراق الإسباني هو: ما أنتجه علماء شبه جزيرة أيبيريا قديما والإسبانيون حديثا، من دراسات حول الإسلام و حضارته بعقلية استشراقية.

فمن محترزات التعريف:

أ/ (علماء شبه جزيرة إيبيريا): فالعبارة عامة لكل من إسبانيا و البرتغال لكون الحضارة الإسلامية استوطنت كلا البلدين قبل انفصالهما.و أن هذا الاستشراق في بدايته كان مهتما بالتراث الإسلامي دون تمييز أكان إسبانيا أم برتغاليا، لأن الاستشراق أسبق في ظهوره من هذه الدول، أما بعد الانفصال بين الدّولتين فنقصد به ما أنتجته عقليّات دولة إسبانيا الحديثة فقط، مع العلم أن البرتغاليين ليس لهم جهود في هذا المجال تذكر.

ب/ لم يتم تقييد التعريف بالاستشراق المكتوب باللغة الإسبانية، لأن الاهتمام هنا منصب حول الموضوع و الفكرة الاستشراقية، بغض النظر عن لغتها ، وهو أشمل لجميع الدراسات المكتوبة في شبه جزيرة إيبريا سواء كان باللغة الإسبانية أو العربية أو اللاتينية القديمة .

❖ **الإطار الزماني والمكاني للدراسات الاستشراقية الإسبانيّة .**

لا شك أنّ تحديد البعد الزمانيّ والمكانيّ لكلّ مدرسة علميّة، ذو أهمّية كبيرة في تحديد الإطار المرجعيّ للدراسة، ويمكن تحديد الإطار الزمانيّ والمكانيّ للدراسات الاستشراقيّة الإسبانيّة حسب التفصيل الآتي:

1/ الإطار الزمانيّ:

عرف أول امتزاج بين المسلمين و الإسبان عند الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا وظهرت بعد ذلك

مدارس لترجمة التراث الإسلامي إلى اللاتينيّة، وكانت مدرسة "تراجمة طليطلة" هي السبّاقة في الظهور، وكان ذلك عام (1085م)[1]، و يمكن اعتبار هذا التاريخ هو نقطة البدء للتأريخ للاستشراق الإسبانيّ الذي تواصل إنتاجه إلى يومنا هذا.

2/ الإطار المكاني:

لقد كان الاستشراق في بلاد الإسبان والبرتغال غير متمايز، ولفظة الأندلس شاملة لكلا الدولتين، ومن هنا لا يصحّ التفريق بين الاستشراق الإسبانيّ والبرتغاليّ في الفترة المتقدّمة لظهوره، يقول عبد الوهاب المراكشي في بيان حدود الأندلس:(أما

[1] وهو تاريخ سقوط طليطلة تحت سيطرة الإسبان (محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.4، 1997، ج:2، ص.78.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي منهن الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس[1]، وهو البحر الرومي مما يقابل طنجة في موضع يعرف بالرقاق، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا، وهذا الخليج هو ملتقى البحرين أعني البحر مانطس والبحر أقيانس[2]، وحدها الشمالي والمغربي البحر الأعظم وهو بحر أقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة وحدها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين بحر الروم والبحر الأعظم "[3].

ونلاحظ أنه حدّ البعد المكاني للأندلس يشمل شبه جزيرة أيبيريا أي كلّ من إسبانيا والبرتغال.

أما في الفترة المعاصرة فالذي نقصده بالاستشراق الإسباني: ما أنتجه رجال الاستشراق في الدولة القومية الإسبانية حديثا من دراسات حول الإسلام والمسلمين بعقليّة استشراقيّة.

والدّولة الإسبانيّة القوميّة الحديثة (تشمل حوالي 85 % من مساحة شبه جزيرة أيبيريا في جنوب غرب أوروبا، وتشغل البرتغال باقي شبه الجزيرة، تقع فرنسا في شمال شرقها وتفصل بينهما جبال البرنيز، التي يبلغ طولها 480كلم، ويقع خليج بيسكي في شمالهما، وهو جزء من المحيط الأندلسي، وفي غربها البرتغال، والأطلنطي في شمالها الغربي، ويفصلها عن قارة إفريقيا مضيق جبل طارق في جنوبهما الغربي، واتساع المضيق 16كلم)[4].

❖ **نشأة وتطور الاستشراق الإسباني.**

مرّت المدرسة الإسبانية في نشأتها وتطوّرها بثلاث مراحل يمكن إجمالها فيما يأتي:

1/ مرحلة: الظهور والترجمة (1058–1492م).

كان الاستشراق الإسبانيّ هو السبّاق في الظهور على كل ألوان الاستشراق الأوربي، وتميزت هذه المدرسة الاستشراقية عن غيرها من المدارس الأوروبية (بعكوفها على الإنتاج الفكري الذي تركه المسلمون في إسبانيا، ومن ثم أتيحت للإسبان فرصة تأسيس دراسات تاريخية – فكرية – نقدية اعتمادا على الوثائق والآثار الشاهدة وليس على الفرض والتخمين... وكان ابتداء ذلك محاولتهم حيازة التراث الإسلاميّ عن طريق الترجمة، ممتثلين في ذلك بمقولة أحد مستشرقيهم: (كيف بنا نعرف تاريخنا بعمق أو ندونه على حقيقته إذا لم يكن لدينا علم (دراية) حقيقي بمعتقدات ودين المسلمين)[5].

ولقد كان للمستعربين دور بارز في تأسيس الاستشراق الإسباني، فقد نشط هؤلاء المستعربون في عملية ترجمة التراث العربي إلى اللغة اللاتينية أو القشتالية، فبعد الحروب الصليبيّة التي خاضها الإسبان ضد المسلمين في الأندلس، وسقوط مدينة طليطلة[6] ظهر مجمع للمترجمين فيها، والتي كانت من أكبر مراكز العلم فيها، وكان هذا المجمّع قد تأسّس على يد رئيس أساقفة طليطلة ريموند (526–547هـ/ 1131–1152م)[7]. فبفضل جهوده نقلت كثيرا من الآثار العربية إلى اللاتينية، وتولى بعنايته طائفة من المترجمين والكتاب عرفت في التاريخ بمدرسة المترجمين الطليطليين، وكان كثيرا ما يحفزهم على العمل

---

[1] يعنى به البحر الأبيض المتوسط.

[2] يقصد به المحيط الأطلسي.

[3] عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح، محمد سعيد العريان، د.ط، د.ت، ص.27–28.

[4] محمد عتيرس، معجم بلدان العالم، الدار الثقافية للنّشر، د.ط، 1422هـ – 2002م، ص.21.

[5] محمد بن عبد القادر برادة، مرجع سابق، ص.9. بتصرّف يسير.

[6] طليطلة: مدينة إسبانية تقع على بعد 75 كم جنوب مدريد . فتحها المسلمون سنة 92 هـ وسقطت في المحرم سنة 487 هـ. ينظر: (أبو عبد الله الحميري، صفة جزيرة الأندلس، تح: لافي بروفنصال، دار الجيل، لبنان، ص.130). https://ar.wikipedia.org

[7] مشتاق بشير الغزالي، القرآن في دراسات المستشرقين، دار النفائس، د.ط، د.ت، ص.19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويشجعهم على الترجمة ويبذل لهم على ذلك الصلات والعطايا الجزيلة. فتم عن طريق هؤلاء المترجمين ترجمة مقدار ضخم من التراث العلمي الإسلامي[1] وفي القرن الثاني عشر الميلادي بلغت حركة الترجمة من العربية غايتها من النشاط، فترجم عدد كبير من الكتب الطبية المشهورة ... وكانت معظمها على يد أشهر المترجمين الأوروبيين، وأكثرهم نشاطا هو جيرارد الكريموني الإيطالي (1114-1187م) ... وظل حال الترجمة في طليطلة على هذا الوضع حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي)، حيث ظهر الملك ألفونسو الحكيم (650-683هـ/1252-1284م) الذي قام بجهود جبارة في الترجمة والاقتباس عن العلوم والمعارف العربية إلى اللغتين اللاتينية والقشتالية[2].

وقد أنشأ ألفونسو الحكيم معهدا للدراسات اللاتينية العربية سنة 652هـ/1254م في إشبيلية[3]؛ كما اتجه اهتمام ألفونسو الحكيم إلى تدوين واسع للأحداث العامة تحت نظره، وكان اعتماده في ذلك على مصادر التاريخ العربي ووثائقه، كما ركز جهده على ترجمة المصنفات والآثار العلمية في الفلك[4].

ولم يكد القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يؤذن بالزوال حتى انتهى العصر الذهبي للترجمة من العربية إلى اللاتينية، وإن بقيت الترجمة حتى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي قائمة. غير أن ما ترجم حتى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يعتبر بحق مفتاح النهضة الحضارية والازدهار العلمي والفكري لأوروبا[5] .

2/ مرحلة: القطيعة مع التراث الإسلامي (1492-1750م).

لقد كان انحصار النفوذ الإسلامي في الأندلس ; عاملا هاما في تغذية الأحقاد الصليبيّة، رغبة في محو أي وجود لهم على هذه الأرض، وكان سقوط غرناطة عام "1492م"، النقطة الفاصلة في تاريخ التواصل الحضاري الإسلاميّ والإسبانيّ، وذلك مع (إصرار النصرانيّة المنتصرة سياسيا وعسكريا، على تدمير جميع أشكال الثقافة الإسلامية في الأندلس)[6]، وبهذا عاشت إسبانيا عصورا من التخلّف استمرّت قرابة قرنين ونصف من الزمن بسبب معاداتها ومحاربتها للإسلام والمسلمين، ولكل ما له صلة بالعلم، وما محرقة الكتب بغرناطة إلا دليل ساطع على ذلك.

وبالرغم من عمليات التطهير الممنهجة للتراث الإسلاميّ والثقافة العربية في هذه المرحلة، (فإنّنا لا نعدم مع ذلك وجود بعض المجهودات التي اعتنت بهما وبدراستهما. ولقد تمثّل ذلك في إطلاق بعض المجاميع الفرنسيسكانيّة[7] لدعوات إلى تأسيس

---

[1] سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 540-541.

[2] سعد بن عبد الله البشري، مرجع سابق، ص.543.

[3] إشبيلية: مدينة تقع جنوب إسبانيا، فتحها المسلمون عام 94هـ، وكانت دار ملكهم وعاصمتهم، سقطت سنة 646هـ. ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، لبنان، ط.2، 1995، ج:1، ص.195). وينظر: https://ar.wikipedia.org

[4] سعد بن عبد الله البشري، مرجع سابق، ص.534.

[5] سعد بن عبد الله البشري، مرجع سابق، ص.543.

[6] محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصوّرات الإستشراق الإسباني، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، د.ط، 1424هـ، ص 228.

[7] الفرنسيسكانيّة: هي طريقة من طرق الرهبنة في الكنيسة الكاثوليكية، تأسست على يد فرنسيس الأسيزي في شمال إيطاليا في القرن شمال إيطاليا في القرن الثالث عشر تحديدًا عام 1208 وثبت قوانينها البابا إينوسنت الثالث عام 1209، ترتكز على الاهتمام بالفقراء والعمل على تنمية وضعهم بتنمية مستدامة. ينظر: https://ar.wikipedia.org

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معاهد لتعليم العربية بإسبانيا، مثلما تجسّد كذلك في تعلّم بعض الإسبانيين لهذه اللغة وتدريس نحوها ... ويمكن أن نمثّل على هذا الأمر بكتاب للنّحو العربي، وبقاموس عربيّ إسبانيّ خلّفهما الراهب "برناندينو غونثالث")[1].

3/ مرحلة: إعادة الاعتبار للتراث الإسلامي (1750– إلى يومنا هذا).

لقد (عمل الملك "كارلوس الثالث" ووزراءه أمثال "كامبومانيس" على استقدام بعض المارونيين السوريين واللبنانيين قصد الاضطلاع بمهام الترجمة وتدريس اللغات الشّرقية. وممن اشتهر منهم "ميخائيل الغزيري"، الذي قام بفهرسة القسم العربي من مكتبة دير الإسكوريال، وقام بنشرها بين سنتي 1760و1770)[2]، ولا شكّ أنّ هذا الاتجاه السياسيّ المتسامح مع التراث الإسلاميّ هو الذي بعث روح إعادة الاعتبار للتراث الإسلاميّ.

وممن لمع اسمه في هذه الفترة "خوسيه أنطونيو كوندي (1765–1820م)"، خاصة بعد صدور كتابه: "تاريخ سيطرة العرب على إسبانيا"، الذي إمتاز بالجدّة من جهة المعلومات التي بثّها فيه، نتيجة استفادته من المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الملكية والتي اشتغل فيها محافظا لمدّة 20 سنة[3]، ولكن بسبب آرائه السياسية نفاه الملك فرناندو السابع فعاش في فرنسا، وقد هاجمه بعد وفاته، المستشرقون الإسبان، وكذلك هاجمه دوزي فاتهموه بأنّه لم يكن يحسن العربية وأنّه لم يستفد من نفائس المخطوطات التي كانت تحت تصرّفه[4].

وممن سطع نجمه أيضا في القرن التاسع عشر المستشرق "باسكوال دي جايانجوس (1809 – 1897)"، وهذا راجع إلى غزارة إنتاجه من جهة وإسهامه في تكوين مجموعة من البحاثة المختصين في الماضي الإسلاميّ للأندلس، وكان قد قضي معظم حياته في فرنسا وأنجلترا، نتيجة عدم رضاه بالواقع العلميّ في إسبانيا، وكان من أهم أعماله ترجمته للإنجليزية كتاب: " نفح الطيب للمقّري " الذي (سيشكّل أسّ أهمّ كتاب سيصدر له بعد ذلك وهو كتاب : "تاريخ الدّول الإسلاميّة في إسبانية"، كما اشترك مع مهندسين إنجليزيين في إنجاز كتاب في جزئين قدّموا فيه صورة رومانسيّة لغرناطة الموريكسيّة)[5].

ومن تلامذته المستشرق "فرانسسكو كوديرا السرقسطي(1836_ 1917م)" الذي (كان من أجلّ أعماله نشره ما يسمى بالمكتبة الأندلسية في عشرة مجلدات : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، والصلة لابن شكوال والتكملة لابن الأبار)[6].

ومن تلاميذ كوديرا المستشرق "أسين بلاثيوس (1871_1944)" وكانت (بداياته العلميّة أن تناول أعلاما من المتصوّفة بالدراسة أمثال ابن عربي، وابن باجة السرقسطي، وأبي حامد الغزالي)[7].

وكان لتولّيه كرسيّ اللغة العربية بجامعة مدريد بعد شيخه كويديرا (دور حاسم في تنويع نشاطه الاستشراقيّ وتكثيفه وتطويره)[8].

(وكانت القنبلة العلميّة الكبرى ... لما أن تقدّم ببحث استهلاليّ بمناسبة تعيينه عضوا في الأكاديميّة الملكية، ألقاه في 26 يناير سنة 1919، عنوانه "الأخريات الإسلاميّة في الكوميديا الإلهيّة" ... وقد أثار ضجّة كبرى في مختلف الأوساط العلميّة

---

[1] محمد عبد الواحد العسري، المرجع نفسه، ص 231.

[2] ينظر: محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق، ص 232–233.

[3] ينظر: محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق، ص 244.

[4] عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط.3، 1993 ، ص 491.

[5] ينظر: محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق، ص249–251.

[6] عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص.480.

[7] محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق، ص 275.

[8] محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق ، ص276.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في العالم كلّه، نظرا إلى خطورة المشكلة التي أثارها، وهي تأثّر دانتي بالتصوّرات الإسلاميّة للآخرة في وضعه لرائعته الخالدة "الكوميديا الإلهية")[1].

و(في 18 ماي 1923م التحق بالأكاديميّة الملكيّة للتاريخ، وفيها قدّم تعريفا مفصّلا عن سيرة ابن حزم الشخصيّة والعلميّة، ناهيك عن ترجمة مفصّلة لكتاب الفصل في الملل والنحل)[2].

وهكذا انتشر الوعي في الأوساط المثقّفة الإسبانيّة بوجوب إعادة الاعتبار للثقافة الإسلامية، خاصة وأنّ كثيرا منهم مازالت تسري فيهم دماء الموركسيين، ومن ثمّة استشعروا بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقهم تجاه تاريخهم العربيّ الإسلاميّ، ومن ثمة عملوا على تجاوز مخلّفات الحقد الصليبي، الذي رافق سيطرتهم على إسبانية.

❖ **طبقات المستشرقين الإسبان.**

سأعتمد في هذه الدراسة على ضابطين هامين قصد تصنيف أعلام الاستشراق الإسباني إلى طبقات وهما:

الضابط الأوّل: تصنيفهم من جهة طريقتهم في التعاطي مع التراث الإسلامي الأندلسي، ومدى قربهم وبعدهم من المقالات الإسلامية من جهة الانتصاف لها، أو النظر إليها بعين الإجحاف والجحود لها.

الضابط الثاني: تصنيفهم باعتبار المراحل الزمانية التي مرّ بها الاستشراق الإسباني.

وتفصيل ذلك:

1/ تصنيفهم من جهة طريقتهم في التعاطي مع التراث الإسلامي في الأندلس:

يمكن تصنيف المستشرقين حسب هذا المعيار، إلى فئتين:

أ/ فئة المنصفين للدراسات الإسلامية والتراث الإسلامي بالأندلس.

ومن أبرز هؤلاء الأعلام نجد خوان أندريس (1740 . 1817)، ونحن لا نهتمّ هنا بوضع ترجمة مفصّلة له، إنما نركّز هنا على بيان نماذج من إنصافه للتراث الإسلامي بالأندلس والمسلمين والإسلام عموما.

ومن مؤلّفاته التي تغنّى فيها بالأصل الإسلاميّ للعلوم الغربية عموما والإسبانيّة خصوصا كتابه : "أصول الأدب عامة وتطوّراته وحالته الراهنة"، وكان قد كتبه باللغة الإيطاليّة بين سنتي 1782 و 1798، ثمّ تمّ نقله إلى اللغة الإسبانيّة بين سنتي 1784-1806م، بعنوان "Origen progresos y estado actual de toda la letteratura"، وقال فيه مؤكدا: إنّ الفضل في قيام الدّراسات الطّبيّة في أوروبا يرجع إلى ما كتبه العرب[3].

(وذهب "أندريس" إلى أنّ قيام التأليف العلمي في أوروبا في الطّب والرّياضيات والعلوم الطبيعيّة مرجعه إلى العرب، وذكر تأييدا لرأيه أسماء "جربرتوس" و"كومبانودي نوفارا" و "أدلارد الباتي" ، و "مولي" و "ألفونسو العالم"، وقال إنّهم أعلام حركة انتقال علوم العرب إلى أوروبا)[4].

و(ذهب إلى أنّ ديكارت أخذ عن أعلام الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الرئيس الذي يقول "أنا أفكّر إذن أنا موجود)[5].

---

[1] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص124.

[2] ينظر: محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق ، ص283.

[3] ينظر: آنخيل غونثاليث بالينثيا، مصدر سابق، ص. 533.

[4] آنخيل غونثاليث بالينثيا، مصدر سابق ، ص 534.

[5] آنخيل غونثاليث بالينثيا، مصدر سابق ، ص 534-535.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ووصل إلى نتيجة مفادها أن كلّ الفضل في دخول العلوم إلى أوروبا قاطبة كان من العالم الإسلاميّ، فيقول: (فإذا لم يكن للعرب من الفضل إلا الاحتفاظ بذخائر العلوم التي أهملتها الشعوب الأوروبيّة ونقلها، وإيداعها أيدي النّاس عن طيب خاطر، فهم حقيقون من أهل الأدب المحدثين بالشكر والعرفان)[1].

ب/ فئة المتعصبين ضدّ التراث الإسلامي والدراسات الإسلامية والإسلام عموما.

ومن نماذجهم "خوليان ريبيرا (1858/1934م)"، والذي يرى أنّ الشخصيّة الإسبانيّة شخصيّة متميّزة عن الشّخصيّة المسلمة العربية كلّ التميّز، ويدلّل على ذلك بأنّ (أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون اللغة العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها. وأما شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم، فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية (El romance)... ثم إن هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية ... وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشّعبيّ صورتين: إحداهما "الزجل" والثانية "الموشّح")[2]. ومن هنا فإنّ أصل كلّ إبداع عنده في الأندلس الإسلامية راجع إلى الشّخصيّة المتميّزة للجنس الإسباني.

ومن الشخصيات المتعصّبة ضدّ التراث الإسلاميّ نجد المستشرق: "سيمونث فرانسيسكو جفير (1829-1891م)" الذي (نشر مقالا في سنة 1870م بعنوان "تأثير العنصر الوطني المحلي في الحضارة العربيّة الإسبانيّة"، وزعم فيه أن تفوّق الحضارة العربية في إسبانيا إنما يرجع الفضل فيه إلى العنصر المحلي الإسباني)[3].

2/ تصنيفهم باعتبار المراحل الزمانيّة التي مرّ بها الاستشراق الإسباني.

ووفق هذا المعيار فإنّه بالإمكان تصنيف المستشرقين الإسبان إلى ثلاث فئات:

أ/ المستشرقون المتزامنون مع فترة انتشار حركة الترجمة.

ومن أبرز مستشرقي هذه الفترة نذكر: "يوحنا الإشبيلي وريموند مارتيني وبسكوال" ومن تأمل في سيرة أمثال هؤلا المستشرقين يلمح مجموعة من الخصائص تجمع بينهم منها:

- ✓ الإتجاه نحو التراث العربي والإسلامي، ودراسته بشراهة منقطعة النظير، خصوصا ما يتعلّق بمصادر تشريعه، ومؤلفات المسلمين في العلوم الطبيعيّة. وكان قصدهم من دراسة مصادر تشريعه هو الرّغبة في نقضه والرّد عليه، أمّا قصدهم من دراسة العلوم الطبيعيّة فرغبة منهم في الإستفادة منها ونقلها إلى سائر أوروبا الصليبيّة.
- ✓ الرّغبة في التعرف على المؤهلات الحضارية التي رفعت المسلمين إلى قمة الريادة العالمية، فكانت لهم عناية بترجمة القرآن الكريم كما سبق ذكر ذلك.
- ✓ كانت من منتجهم العلميّ كتابات تردّ على الإسلام وتدافع عن النصرانيّة، وكانت أغلبها مليئة بالافتراء والطّعن في الإسلام ونبيّه وفي القرآن، فهذ يوحنا الأشقوبي يؤلف كتاب: "طعن المسلمين بسيف الروح" [4]، وعنوانه كافّ للدّلالة على فحواه.
- ✓ الترجمة الحثيثة للمؤلفات الإسلاميّة، من العربية إلى اللاتينية .

ب/ المستشرقون المتزامنون مع فترة القطيعة الإسبانية مع التراث العربي الإسلامي.

---

[1] آنخيل غونثاليث بالينثيا، مصدر سابق ، ص 535.

[2] أنخيل غونثاليث بالينثيا، مصدر سابق، ص. 142 . 143.

[3] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.362.

[4] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.41.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من أبرز أقطاب هذه المرحلة نجد المستشرق "بيدرو القلعاوي" –كان حيا في حدود 1499م–، ومن أبرز خصائص هذه المرحلة:

- ✓ تأثّر الاستشراق بالحالة السياسية التي سادت شبه جزيرة إيبريا من عداء صارخ للإسلام والمسلمين.
- ✓ عدم الاهتمام بالتراث الإسلامي، بل معاداته وكيد المكائد ضدّه، فبعد سقوط غرناطة ارتكبت أبشع الجرائم تجاهه، فأحرق ما يزيد عن مليون ونصف مليون مخطوطة إسلامية، بل أصبح التلبّس بالتراث الإسلامي شبهة، يعاقب عليها بأبشع وسائل النكاية والتعذيب.
- ✓ ظهور ما يسمى بالإنتاج العلمي للموركسين وهم مسلمون آثروا البقاء في إسبانيا مع الاحتفاظ بديانتهم الإسلامية، وإن تظاهروا بالتنصر، وكان أغلبهم يكتبون بالإسبانية، لكن بحروف عربيّة.
- ✓ كانت عملية الترجمة في هذه الفترة قد اقتصرت على ما يخدم الأغراض الاستعمارية للدولة الإسبانية، أو ما يتناسب مع حركة التنصير التي اتخذت كوجه من الأوجه الخفية للاستعمار في هذه المرحلة فلمّا استولى الإسبان على غرناطة، كلّف حاكمها، المستشرق "بيدرو القلعاوي" بمهمه تأليف قاموس إسباني–عربي بهدف تعليم العرب والمسلمين بها الغة الإسبانية[1] وقد ألحق بالكتاب (مجموعة من النصوص بلهجة غرناطيّة يقول عنها "إنّها ضرورية للمبشّر بين المسلمين" وذلك أنّه يورد فيها صيغا ليقرأها المتنصّر)[2]. ومن هنا تظهر لنا الأغراض الخفيّة للإستشراق عموما وللإستشراق الإسبانيّ خصوصا.

ج/ المستشرقون المتزامنون مع فترة إعادة الاعتبار للتراث العربي الإسلامي (1492–1750م).

ومن أبرز أعلام هذه الفترة نجد أستبانث كلدرون، أنخيل غونثاليث بالينثيا، بلانيوس، روبلس، لافونتيه، بلباس، كويديرا، ومن أبرز خصائص كتاباتهم:

- ✓ إنتاجهم العلمي المتأثّر بالحضارة العربية الإسلامية، والمنصف في كثير من الأحيان لجهود المسلمين ودورهم في الازدهار العلمي للحضارة الغربية خصوصا وللعالم عموما.
- ✓ الاهتمام بتحقيق التراث الإسلامي الأندلسي، فأخرجوا لنا بذلك ثروة من المخطوطات التي لا يوجد لها أثر إلا في إسبانيّا، فمن نماذج ذلك أن حقّق سيمونث كتاب (معيار الاختيار) للسان الدين ابن الخطيب[3] وحقق كويديرا أيضا كتاب (الصلة) لابن باشكوال (وبغية الملتمس) (وتاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي[4].
- ✓ الاهتمام بتاريخ الموركسيين، وهم : من بقي من المسلمين في الأندلس محتفظين بعاداتهم وتقاليده سرا، فكثر التأليف الأدبيّ والتاريخيّ الذي عنى بهم، ومن أبرز هذه الكتابات نجد قصة المستشرق أستبانث كلدرون (1799–1876م) الموسومة بعنوان: ("النّصارى والموركسيين"، (سنة 1838م)،وتروي قصة غرام بين فتاة موركسيّة وبين مسيحيّ في عهد كارلوس الخامس حينما احتدم التناقض بين الإسبان والمتنصّرة المسلمون الذين بقوا تحت حكم الإسبان)[5].
- ✓ الاهتمام بجهود المستعربين، وهم الإسبانون الذين تعرّبوا مع أنّهم حافظوا على عاداتهم وديانتهم، فهذا سيمونث ألّف (قصّة "مرين" التي تناول فيها الأقلّيات التي بقيت على ديانتها المسيحيّة حتى نهاية القرن الحادي عشر)[6].

---

[1] ينظر: عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.77.

[2] ينظر: عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.78.

[3] ينظر: عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.362.

[4] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.480.

[5] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.22.

[6] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.361.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

✓ الاهتمامهم ببيان أثر اللغات الشرقية على الشعب الإسبانيّ، ومن أشهر هذه الجهود تلك الخطبة التي ألقاها جونثالث أمام الأكاديمية الملكية بعنوان:"تأثير اللغات الشرقيّة في ثقافات وشعوب إسبانيا"[1].

✓ اهتمامهم بالآثار العمرانية الإسلامية التي مازالت تمثّل معلما شامخا من معالم الازدهار الحضاري للمسلمين في الأندلس، فلذلك نجد "بلبا" ألّف كتاب (خلال الحمراء) وكتاب (الحمراء منذ قرن) وكتاب (آثار غرناطة)[2]، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل كان اهتمامهم منصبا على كل ما يتعلّق بآثار المسلمين سواء منها العمرانية أم غيرها، فهذا كويديرا قد ألّف مباحث في النقود المستعملة إبّان الحقبة الإسلاميّة بعنوان:" النقود العربية الإسبانية"، وآخر سمّاه "دور ضرب النقود العربية الإسبانيّة"[3].

✓ الاهتمام بعادات المغرب الإسلامي، نظرا للعلاقة الرابطة بينه وبين الأندلس، ونظرا لأهمية مثل هذه الأبحاث في خدمة المصالح الاستعمارية الإسبانية، وفي هذا المضمار ألّف المستشرق ("لرتشوندي (ت: 1836م)" معجم: "اللهجة العربية العامية في مراكش مع عدد كثير من الألفاظ المستعملة في الشرق العربي وفي الجزائر، ويحتوى أيضا على وصف عادات أهل مراكش ونبذة عن الدين الإسلامي وعن ملابس وأطعمة وفنون المغاربة)[4].

✓ يمتاز إنتاجهم بالتنّوع وتناثر اهتماماته بين تحقيق التراث والدراسات الأدبية والتاريخية المختلفة، وتجمع هذه الدراسات بين العرض العام وبين التعليقات الجزئيّة المبثوثة في الأبحاث الصغيرة.[5]

❖ **موقف المدرسة الإسبانية من مصادر التشريع الإسلامي (القرآن والسّنة).**

مما اشتهر عن مدارس الاستشراق الأوروبيّة عداوتها الشديدة للإسلام، ومن ثمّ سعيها لدحض أصول الإستدلال فيه، خاصة الكتاب والسّنّة، وسأعمل هنا على استجلاء موقف المدرسة الإسبانيّة من الكتاب والسّنّة، ومن ثمّ بيان قربها أو بعدها عن الخطّ العدائيّ الأصيل، الذي سلكته مدارس الاستشراق الأوروبيّة.

1/ موقفها من القرآن الكريم.

لقد أدرك رجال الدين المسيحيين أهمية القرآن الكريم، وضرورة التعرف على ما فيه، منذ بداية احتكاك العالم الغربي بالإسلام، ولكن عدم إتقان الغالبية العظمى منهم العربية، عطّل عليهم هذا القصد[6]، واستمرّ الأمر على حاله حتي أتي (بطرس المحترم الفرنسي، ففي رحلته الثانية إلى إسبانيا قرب نهاية 1141م، عني بأحوال المستعربين الكاثوليك ... ففي سبيل هذا لجأ إلى مدرسة المترجمين بطليطلة، وكلف بترجمة القرآن بطرس الطليطلي وشخصين آخرين ذوي معارف عامة، هما هرمن الدلماشي والقسيس الإنجليزي روبرت كنت، وأشرك معهم عربيا مسلما اسمه محمد ... ومهمته هي مراجعة الترجمة على النصّ الأصلي، أو أن يترجم من العربية إلى الإسبانية الشعبية، ثم يتولّى الآخرون الترجمة... وأنجزت هذه الترجمة في 1143م بعد أن أجزل بطرس المحترم للمترجمين العطاء)[7].

---

[1] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.392.

[2] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.128.

[3] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.481.

[4] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.514.

[5] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.74.

[6] مشتاق بشير الغزالي، مرجع سابق، ص.19.

[7] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.110.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و(للإشارة فإنّ هذه الترجمة هي التي طبعها "تيودور بيبلنياندر": في بازل سنة 1543 ونقلت بعد ذلك إلى الإيطالية والألمانية والهولندية)[1].

وقد (ظهرت فيما بعد طبعات أخرى لترجمة "بيبلياندر" وذلك سنة 1550م، وسنة 1721م، في مدينة ليبزج، كما طبع في هذه المدينة أيضا ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم، مع أصله العربي سنة 1768م، قام بها "جوستاس فريد ريكوس" فورياب....ولقد ترجمت معاني القرآن الكريم مرة أخرى إلى اللاتينة على يد الأب بولس لويس مراكشي owis Marracci وذلك سنة 1698م)[2].

وقد علّق يوهان فوك على هذه الترجمة بقوله :(تزخر بأخطاء جسيمة، سواءٌ في المعنى أو في المبنى، ولم يكن أمينًا، إذ أغفل ترجمة العديد من المفردات، كما لم يتقيَّد بأصل السياق، ولم يُقم وزنًا لخصوصيات الأدب)[3].

كما ظهرت ترجمات آخرى لسور قرآنية بعينها فـ(في القرن الثالث عشر الميلادي طلب ألفونس العاشر أن تترجم معاني سورة الإسراء إلى اللغة الإسبانية، فقام بهذا العمل طبيبه الخاص الدون إبراهيم، وقد نقلت هذه الترجمة إلى الفرنسية بواسطة بونا فنتورا دي سيف)[4].

أما موقف هذه المدرسة العدائي تجاه القرآن الكريم، فقد برز من خلال تلك الترجمات المترهّلة للقرآن الكريم، فقد عملوا على تحريفه وتشويه معانيه ومقاصده، غير أن الأمر لم يبق عند هذا الحدّ، بل سعوا إلى إظهار عدم حجّيته، فهذا يول ريموند يرى أنّ القرآن الكريم يرجع في أصله إلى (مصدرين مختلفين ومتكاملين، باختلاف ما فيه من تعاليم وأحكام. فما وافق منها العهد القديم والجديد فإنّه يرجع إلى ما علّمه الراهب ميكولاو الكذاب، وما لم يوافق ذلك فإنّه يؤوّل بالضرورة إلى ما أوحاه الشيطان إلى هذا الأخير من تعاليم الفحش والبذاءة والفسق والتهالك على الملذات الحسّية)[5].

ولا شكّ أنّ شخصيّة "الراهب ميكولاو الكذاب"، شخصيّة وهميّة من نسج خيال هذا المستشرق، فلم يثبت تاريخيا في أي مصدر موثوق به أنّ النّبي صلى الله عليه وسلّم التقى براهب اسمه ميكولاو.

ولقد حاول مستشرق آخر إسقاط صفة الإعجاز والقداسة عن القرآن، وهو المستشرق مارتيني ، ريموندو (1230 – 1284 م)، واتّخذ في سبيل الوصول إلى غايته هذه، السّعي إلى معارضة القرآن الكريم، ومحاولة الإتيان بما عجزت عنه العرب والعجم على مرّ العصور وكرّ الدّهور، وممن أشار إلى هذه المعارضة ، المستشرق "يوهان فوك" في كتابه (تاريخ حركة الاستشراق) حيث قال مادحا صاحب هذه المعارضة :(وإن تهجّم رامونـدوس على القرآن الكريم من خلال تقليده لإحدى سوره، تكشف عن مقدرة فائقة بالغة العربية)[6].

ولا شك أن هذا التحامل على إعجاز القرآن الكريم أضحى مفخرة المستشرقين الإسبان، ولا شكّ أنّ هذا الإطراء من المستشرق يوهان فوك أبرز دليل على ذلك، ورغم ما وصف به من إنصاف وموضوعية، إلا أنّه قد تجاوز هنا هذه العباءة، نعم هو إنصاف الصديق في الفكر والعقيدة وبخس المخالف وإن كان الحقّ معه.

---

[1] أحمد أبو الفضل عوض الله، انتشار ترجمات معاني القرآن الكريم في مشرق العالم ومغربه، ، مجلة البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية – شارع الرياض، د.ط، د.ت، ع: ،30، ص 259.

[2] أحمد أبو الفضل عوض الله، المرجع نفسه، ص.259-260.

[3] يوهان فوك، تاريخ حركة الإستشراق، تر: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، ط.2، 2001، ص.19.

[4] أحمد أبو الفضل عوض الله، المرجع السابق، ص.262.

[5] محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق، ص 163.

[6] يوهان فوك، مصدر سابق، ص.26.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومما يزيد الأمر استغرابا تهافت المستشرقين الأوروبيين على هذه المعارضة ، وسعيهم إلى ترجمتها إلى لغاتهم، احتفاء بهذا العمل الجريء، فهذا إسكيابالي يعمل على ترجمتها إلى الإيطالية[1].

وما أحسن ما ذكره الدكتور "علي بن إبراهيم الحمد النملة" ردا على هذه المعارضة إذ قال:(وقد سعى إلى معارضة القرآن الكريم (!) ليدلل على ضلوعه باللغة العربية ، وهي مليئة بالسخف والوقاحة والتطاول على الدين الإسلامي الحنيف)[2].

ولم يقف هذا المستشرق عند هذا الحدّ بل ألّف كتابا خاصّا في الرّدّ على القرآن الكريم أطلق عليه اسم " الخلاصة ضد القرآن "[3] .

2/ موقفها من السنّة النبوية.

لم تظهر أي كتابات إسبانية استشراقية، حول السّنّة النبويّة سواء أكانت مستقلّة في التأليف أم في مباحث خاصة ضمن كتاباتهم المختلفة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى انشغالهم بالتراث العربي الأندلسي، لكونه يمثّل إحدى الحقب التاريخية التي ينبغي تجليتها وتوضيح الموقف الصحيح تجاهها، خصوصا بعد الإجحاف المتواصل عبر القرون الطويلة لفضل المسلمين بالأندلس.

والذي يغلب على الظن أن موقف هذه المدرسة لا يخرج عن الموقف العدائيّ الذي تميّزت به المدارس الاستشراقية الأوروبية، والذي يدعم هذا الموقف عدم وجود ردود منهم تجاه الحملة الشرسة التي قادها رواد الاستشراق الأوروبي، الذين كان غالبيّتهم أساتذة للمستشرقين الإسبان أو كانوا هم أساتذة لهم، ولم نرى منهم حتى هذا الوقت كتابة منصفة متجرّدة من الهوى تنصف الوحي القرآني فضلا عن السّنة النبويّة.

ولقد صادفني أثناء بحثي هذا حول موقف هذه المدرسة من السنّة النبويّة أن عثرت على نصوص تدلّ على اطّلاعهم على نصوص السّنة النبوية، خصوصا الصحيحين، فقد ذكر المستشرق "يوهان فوك" في كتابه (تاريخ حركة الاستشراق) أن المستشرق مارتيني ريموندو (1230 – 1284 م) " ومن أجل البرهنة على السمة النبوية للسيّدة مريم...يروي من صحيحي البخاري ومسلم الأحاديث الدّلة على أنّ كلّ حديث ولادة عدا مريم وابنها يمسّه الشيطان"[4].

ولا شكّ أن هذا الاستدلال بالأحاديث النبويّة ليس الغرض منه بيان صلاحيّتها للاحتجاج إذ ساق هذا الكلام في معرض ردّه على المسلمين، وما عرفناه عنه من طعنه في القرآن الكريم، أبرز دليل على ذلك.

ويتأكّد لنا ذلك عندما نجده يرجع إلى نصوص في صحيح البخاري ومسلم فيما يتعلّق بسيرة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، ثمّ يحاول مقارنتها بسيرة المسيح عليه السلام، ثم يطعن بعد ذلك في النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، بإثارة الشّبهات حول مسائل الطلاق وتعدّد الزوجات وفريضة الجهاد في الإسلام، ثمّ يخلص إلى نتيجة مفادها أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلّم (لم يأت بشريعة مقدّسة مثل الشريعة الموسويّة والشريعة الإنجيليّة)[5].

الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه، يمكننا تأكيد مقولة مفادها أن الاستشراق ما هو إلا محاولة لفهم الشرق الإسلاميّ بعقليّة غربيّة، ومن ثمّ إعطاء تقييم له، من خلال تلك النّظرة الذاتيّة، المشبعة بالخلفيات الدينيّة والثقافيّة والسياسيّة، ولو كان ذلك على

---

[1] عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص.310.

[2] علي بن إبراهيم الحمد النملة، مرجع سابق، ص.149.

[3] ينظر: علي بن إبراهيم الحمد النملة، مرجع سابق، ص.149.

[4] يوهان فوك، مصدر سابق، ص.26.

[5] محمد عبد الواحد العسري، مرجع سابق، ص.173.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حساب إلغاء الموضوعيّة، وإنكار كلّ المنجزات الفكريّة الإسلامية في أعرق عاصمة من عواصم الفكر العالميّ ألا وهي الأندلس.

ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ بل يتجاوزه إلى محاولة إثبات الذات من خلال إلغاء الغير، وادّعاء أفضليّته، وسلبه حتى حقّ الوجود، الذي لا يمكن للتاريخ أن يتناساه فضلا على أن يجحد عطاءه.

هذه هي الصورة الموجزة عن حال الاستشراق الإسبانيّ، ولولا وجود بعض المنصفين من مستشرقيهم، لقلنا إنه صورة طبق الأصل للعقليات الصليبيّة إبان القرون الوسطى، التي آثرت تدمير العلم والثقافة، على التعايش مع صنّاع الحضارة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com